درسنا في الصفحات السابقة ، بعون من الله تعالى وفضل ، سورة محمد عليه الصّلاة والسلام ، وكانت الدراسة تستهدف تبيين مظاهر إعجاز القرآن الكريم والدروس التي يمكن أن تستفاد . لأن القرآن الكريم يهدي للطريقة التي هي أقوم . وقد أمكن لنا أن نقسم السورة الكريمة إلى ثمانية أقسام . بناء على القضايا المتجانسة التي تعرض لها والموضوعات المترابطة التي تتكلم عنها .

وفيما يتصل بالقسم الأول الذي يتكون من ثلاثة آيات كريمات تبين أن الآية الكريمة الأولى تتكون من ثلاث جزئيات ، والثانية من ست ، والثالثة من ثلاث . الآية الكريمة الأولى تتحدث عن كفّار مكة فهم في قمة الضلال بكفرهم . وقد ازدادوا كفراً بصدهم الآخرين عن سواء السبيل . فاستحقوا أن يزيدهم عز وجل ضلالاً إلى ضلالهم وأن يحبط أعمالهم . قال تعالى : ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم**﴾ . . . والآية الكريمة الثانية تتحدث عن الذين آمنوا بالله تعالى وعملوا وفق هذا الإيمان. وإذا كنا بشأن الآية الكريمة الأولى أمام فكرتين اثنتين تليهما الثمرة أو النتيجة ، فهذا معناه أن من حقنا أن نتوقع جزاءين اثنين لا جزاءً واحداً . لماذا ؟ لأننا في الآية الكريمة الثانية أمام فكرتين كل منهما جاءت في جزئيتين خاصة وأن الفكرتين في الآية الكريمة الأولى تستأثر كل بجزئية . كما أن الجزاء نفسه يستأثر بجزئية . وإن الذي يتوقع قد حدث فعلاً . قال تعالى : ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**

وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ والآية الكريمة الثالثة تبيّن شيئين مهمين . أولهما السبب في كون الكافرين قد أضل الله تعالى أعمالهم ، وكون المؤمنين المتقين كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . وثانيهما العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من معرفة سبب الضلال والهداية ، إضلال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم . إن الكافرين اتبعوا الباطل بمعنى الشيطان والهوى . وإن المؤمنين اتبعوا الحق من ربهم . ألا وهو القرآن الكريم الذي يهدي للطريقة التي هي أقوم . قال تعالى ﴿**ذلك بأن الذين كفروا أتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا أتبعوا الحق من ربهم. كذلك يضرب الله للناس أمثالهم**﴾ وقد لوحظ بشأن آيات القسم أن المعاني سارت وفق الطابع العام للسياق حيث يتقدم دائماً الحديث عن الكافرين ويتأخر الحديث عن المؤمنين، لأن السورة الكريمة مكية عنيفة في أسلوبها عنيفة في معانيها ، وحينما تجمع الآية الكريمة الثانية بين الإيمان والعمل تكون بذلك على غرار الآية الكريمة الأولى التي تشير إلى كون الذين كفروا جمعوا بين سوء الاعتقاد حينما أشركوا مع الله تعالى غيره وبين سوء العمل حينما لم يقفوا عند مجرد الاعتقاد القلبي السيء إنما تجاوزوه إلى أبعد درجات سلم العمل السيء ، وذلك بصدهم غيرهم عن السبيل القويم . والآية الكريمة الثالثة تشير إلى العبرة التي ينبغي أن تؤخذ كي يسير الناس في الطريق الصحيح طريق الإيمان ويتنكبوا الطريق الخاطىء طريق الكفر والطغيان . وفي استطاعة كل إنسان بعد ذلك أن يعرف وفق عمله إلى أي من الفريقين هو ينتمي ، المؤمنين أم الكافرين وكفى بنفس الإنسان عليه حسيباً .

وفيما يتصل بالقسم الثاني الذي يتكوّن من ثلاث آيات . فأول ما يلاحظ ، أن ضرب الأمثال الذي ختم به القسم السابق استتبعه ضرب المؤمنين المتقين رقاب الكافرين الصادين عن سبيل الله تعالى . وإن ضرب الرقاب يمثل أعلى مراحل القرب من الخصم والاستعلاء عليه والتمكن منه . إن

هذا المستوى الرفيع هو الذي يريد الإسلام دين القوة والجهاد في سبيل الله تعالى ، أن يكون المسلمون فيه ، فكيف يوجه القرآن الكريم المسلمين المجاهدين في سبيله جل وعلا في معاملتهم لأسرى أعداء الله تعالى ؟ أشارت الآية الكريمة إلى المن أي إطلاق السراح للاسير مجاناً ، وإلى الفداء أي إطلاق سراحه بمقابل من مال أو نفس أو غيرهما . والمعروف أن كلاً من المن والفداء دليل القوة والعزة اللتين ابتدأتا بضرب رقاب الكافرين في ميدان المعركة . وثمة حالان أخريان للأسير لم تشر إليهما الآية الكريمة وهما ثابتان من السنة المطهرة . الاسترقاق أو القتل . والملاحظ أن الآية الكريمة قدمت المن على الفداء تنبيهاً إلى أن هذه الحالة أفضل الحالين وإشعاراً بأن من حق الإمام توخياً للمصلحة أن يفعل هذا أو ذاك . وبما أن السنة المطهرة مبينة للقرآن الكريم وموضحة له ، وقد استرق الرسول الكريم بعض الأسرى وقتل البعض الآخر في حين منَّ على بعض وفادى بعضاً فمعنى هذا أن المصلحة هي التي توجه الإمام في اختيار واحد من هذه الأمور الأربعة . فإذا قتل الأعداء أسرانا قتلنا أسراهم . وإذا استرق الأعداء أسرانا استرققنا أسراهم . وهكذا . وقد أفضنا الحديث بشأن الرق الذي شرع الإسلام لعتقه . وقد كان موجوداً في كل مكان قانوناً عالمياً ، ولم يحدث أن فكر أحد قبل الإسلام في رفع منزلة الرقيق من مستوى الأشياء إلى مستوى الإنسان بينما الإسلام بحكمته التشريعية نجح في القضاء على الرقيق بالكلية نجاحه بشأن الخمرة والربا من الأمراض الاجتماعية المتغلغلة في أحشاء المجتمع الإنساني . وباستعراض آراء العلماء في الآية الكريمة تبين أن جمهور العلماء يميلون إلى كون الآية الكريمة محكمة وكون الإمام مخيراً في كل الأحوال . وقد ضربنا الكثير من الأمثلة من السيرة النبوية ، على هذه الأحوال الأربع ، أما إلى متى تستمر معاملة الكافرين في هذه الصورة من قتل وشد وثاق فمن أو فداء ؟ فالجواب في قوله تعالى : ﴿**حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ . وإنما تضع الحرب أوزارها حينما يكف الباطل أذاه ، وذلك بحاجة إلى الكثير والكثير من

المجهودات والتضحيات من قبل المؤمنين المتقين . ويكفي أن يعرف أن أتباع هذا الدين الذي تكفّل رب العزة بأن يظهره على الدين كله هم زهاء خمس سكان الدنيا فقط . ويكفي أن يعرف أن الصراع بين الحق والباطل من سنن هذا الوجود وهذا معناه أن على المسلمين أن يعدوا العدة للجهاد المرير الطويل المدى إلى أن يقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً . لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يبلو بعض الخلائق ببعض وأن يكون من نصيب المؤمنين قتال الكافرين وما يرتبط بذلك من صعاب وتضحيات لحكمة يراها الحكيم الخبير . قال تعالى : **﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾** . ويلاحظ أن صيغة يشاء في الزمن المضارع دليل على شمول المشيئة لكل الحالات وليس للحالة الواحدة التي نحن بصددها . ويلاحظ كذلك استعمال جملة «انتصر» وليس انتقم مثلاً . والمعروف أن جملة انتقم تتمشى مع حرف الجر من . بينما تتمشى انتصر مع حرف الجر على . وإن إيثار جملة انتصر مع حرف الجر على لحكمة جليلة يمكن أن يعبر عنها بأنها الجملة القادرة على الإفهام بأن أقصى ما يراد من الخصم وهو الانتصار عليه انتصاراً بيناً أهون الأشياء على الله تعالى . ولحرف الجر على دور وقدرة على تضمين جملة انتصر معنى «انتقم» وبما أننا بصدد سورة القتال وأن السورة الكريمة تطلب أسمى ما يطلب من المجاهدين في سبيل الله تعالى ، أن يضربوا فوق الأعناق ويضربوا منهم كل بنان ، ويرتبط بذلك في المقابل شهداء من المؤمنين ومثخنون بالجراح فإن الحديث ما لبث أن توجه إلى هؤلاء المجاهدين في سبيل الله تعالى من قضى نحبه ومن ينتظر . وقد وقفنا ملياً عند القراءات الأربع للقول «قتلوا» كما حاولنا تبيين المعاني التي يمكن ان تستفاد من القراءة الموجودة في المصحف (برواية حفص) المطبوع حالياً «قتلوا» بضم القاف وكسر التاء المخففة . قال تعالى : **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم**

ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ .

وفيما يتصل بالقسم الثالث الذي يتكوّن من تسع آيات فإنه يغلب عليه المقارنة بين المؤمنين والكافرين في طريقة القرآن الكريم الفذة التي تجمع بدرجة من التوازن عجيبة بين إرضاء العقل وإشباع النفس . فللذين آمنوا وعملوا الصالحات ونصروا الله ورسوله النصر من الله تعالى وتثبيت الأقدام وللذين كفروا بوحدانية الله تعالى وجحدوا نبوة المصطفى ﷺ ، وكرهوا ما أنزل الله ، الخذلان منه تعالى وضلال الأعمال وأن تزل بهم في كل المواطن الأقدام . وهؤلاء قد عميت بصائرهم وأبصارهم عن آيات الله تعالى البينات المعنوية والمادية . وإنهم بشأن القرآن الكريم على قلوبهم أقفالها . وبشأن آثار القوم السابقين الذين دمر الله تعالى عليهم والتي يرونها في سفرهم هم يرونها بأعينهم لا ببصائرهم كي يرعووا إلى طريق الحق والهدى . وتوشك إذن أن تكون نهايتهم مماثلة لنهاية أولئك المكذبين السابقين في الدنيا والآخرة . أما الكافرون فإن مصيرهم في الدنيا الخذلان . لأنهم لا مولى لهم . وفي الآخرة النار وبئس القرار . وأما المؤمنون فإن مصيرهم في الدنيا النصر على الأعداء وتثبيت الأقدام . لأن الله تعالى مولاهم . وفي الآخرة الجنة والنعيم المقيم . وقد وصفت الآيات حال كل من الكافرين والمؤمنين في الدنيا وحظهم من الضلال والهدى وبينت مصير كل من الفريقين في النار والجنة . وقد كان الوصف لنعيم الجنة مستفيضاً حيث كان الحديث عن أنواع النعيم الذي يقترب من الكمال وهو دليل على تحقق الأصلي والضروري وهذا معروف بداهة . ومن أهم مظاهر النعيم في الجنة تلك الأنهار العجيبة التي تتدفق فيها وهي أنهار الماء واللبن والخمر والعسل . وكذلك الثمار التي لا تنقطع إضافة إلى غفران الله تعالى لذنوبهم . وإكمالاً للمقارنة بين أحوال الفريقين تختم آيات القسم بالحث على المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين **﴿كمن هو خالد في النار وسقوا ماء**

حميماً فقطع أمعاءهم﴾ وقد أشار هذا القسم إلى المهر العظيم للنصر العظيم ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وإذا كان من حق المؤمنين تثبيت الأقدام فإن من حق الكافرين أن تزل بهم النعل بل أن يخروا على وجوههم ﴿والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم﴾ وأهم سبب في ذلك كرههم للقرآن الكريم الذي يعني ضمناً كرههم للرسول المنزل عليه القرآن الكريم في أسمى طرق الوحي المبعوث من الله تعالى. وبما أن القوم عاجزون عن تدبر آيات الذكر الحكيم وهم أرباب الفصاحة فمن باب أولى أن يكونوا أشد عجزاً عن فهم ما يمكن أن يدل عليه ما يرونه في سفرهم من آثار الأمم التي دمر الله تعالى عليها أنفسها وأموالها وأولادها وكل ما كان لها. لأنهم عاجزون عن أن يربطوا بين المسببات وأسبابها الحقيقية. وبعد حديث القسم عن نصيب كل من الفريقين في الحياة الدنيا تحول إلى نصيب كل في الآخرة. وبعد الحديث عن أنواع أنهار الجنة ثم التحول إلى المقابل، الماء الشديد الغليان والذي هو من نصيب الكافرين يقطع أمعاءهم فتخرج من أدبارهم بعد أن شوى وجوههم وأطار فروات رؤوسهم من شدة حره لاقترابه من أفواههم متجرعين له. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وأتبعوا أهواءهم. مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن

وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ .

وأما القسم الرابع الذي يتكوّن من أربع آيات فإنه يتحدث في الآيتين الأولى والثالثة عن المنافقين . والآيتين الثانية والرابعة عن المؤمنين المتقين بقيادة المصطفى ﷺ . لقد بيّنت الآية الكريمة الأولى بطريقتها العجيبة الفذة أن هؤلاء المنافقين قد عطلوا كل نعم الله تعالى التي امتن بها جل وعلا عليهم كي يصلهم نور اليقين ، وكل ذلك بسد كل المنافذ التي يمكن للإيمان أن يتسلل منها وإغلاقها وإحكام القيود والأغلال عليها . والحديث عن المؤمنين المتقين أضفى عليهم صفات جديدة هي كونهم قد أوتوا العلم وكونه جل وعلا زادهم هدى وآتاهم تقواهم . وقد تحدث هذا القسم عن سد المنافقين لمنافذ الهداية وطردهم لها . أما الأذن فقد عطلت عن العمل وكذلك العين . وأما المستقر هو القلب أو الفؤاد فقد لفظ بطبعه كل خير ، وذلك بعكس المؤمنين تماماً إذ أن رب العزة قد زادهم هدى إلى هداهم وآتاهم تقواهم . والآية الكريمة الثالثة تنكر على المنافقين ومن شاكلهم ألا يستعدوا للساعة بل يستبعدوها على الرغم من أن علاماتها قد جاءت فعلاً . والآية الكريمة الأخيرة في القسم تأمر المصطفى ﷺ بأن يعلم أن لا إله إلاّ الله وأن يستغفر لذنبه ولذنوب المؤمنين . وفي ذلك درس للمؤمنين في هضم أنفسهم وترويضها على ذل الطاعة مع إشعار الآية الكريمة لهم بأنه جلّ وعلا لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . قال تعالى : **﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وأتبعوا أهواءهم . والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم . فهل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأني لهم إذا جاءتهم ذكراهم . فأعلم أنه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾** .

وفيما يتصل بالقسم الخامس الذي يتكوّن من خمس آيات فإنه يتحدث عن المؤمنين الحريصين على الانتشار السريع لدين الإسلام والخضد العنيف لشوكة النفاق والكفر لذا هم يستعجلون نزول سورة من المحكم من القرآن وليس آية واحدة مثلاً أو عدداً قليلاً من الآيات أو سورة من المتشابه . إنهم يستعجلون سورة ترشدهم إلى الطريقة العملية التفصيلية التي يقاومون بها قوى الشر والطغيان . وتشاء العناية الإلهية أن تنزل هذه السورة الكريمة مؤذنة بالقتال . وهنا يفرح المؤمنون أشد الفرح مع علمهم القطعي بأنهم سيبذلون أرواحهم وأموالهم . ولكن ذلك كله رخيص في سبيل مرضاة الله تعالى . أما المنافقون فإنهم لمجرد الذكر للقتال ترتعد منهم الفرائص وتصفر الأنامل وينظرون إلى المصطفى ﷺ وهو يرتل السورة الكريمة المؤذنة بالقتال نظر المغشى عليه من الموت . والآيتان الكريمتان التاليتان يتوجه فيهما الحديث إلى مخاطبة الذين تولوا عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه فأفسدوا في الارض والله تعالى لا يحب الفساد ، وقطعوا أرحامهم بمعنى الرحم العام والخاص . أما المعنى العام للرحم فهو رحم الدين ويتعلق بما يجب لكل المسلمين من حقوق المحبة لأهل الإيمان ونصرتهم والقيام بحقوقهم أحياء أو أمواتاً . وأما المعنى الخاص للرحم فهو رحم القرابة ويتعلق بالأقرب فالأقرب في حالة تزاحم الحقوق . إن الذين يفسدون في الارض ويقطعون الأرحام يستحقون اللعنة بمعنى البعد عن رحمة الله تعالى . وأولئك هم الذين أصمهم الله تعالى عن سماع صوت الحق وأعمى أبصارهم عن رؤية نور الهداية والعياذ بالله . وإذا كانت الآية الكريمة التي تحدثت عن السمع والبصر يصح أن يقال عنها إنها تحدثت عن المنفذين الرئيسيين الخارجيين للإيمان ففي الإمكان القول إن الآية الكريمة التالية تتحدث عن المنفذين الرئيسيين الداخليين وإن شئت قلت إنها تتحدث عن محطة الاستقبال التي يتم لديها الرفض أو السماح كي يصل المعنى إلى مستقره . أما المحطة فهي الفكر أو العقل وأما المستقر فهو

القلب أو الفؤاد . قال تعالى : ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ .

وفيما يتصل بالقسم السادس الذي يتكوّن من ست آيات فإن الآية الكريمة الأولى تتحدث عن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى . إن من العلماء من ذهب إلى أن الآية الكريمة تعني اليهود . ومن العلماء من ذهب إلى أنها تعني المنافقين . ونحن إلى هذا الرأي الثاني أميل لأن حديث السورة الكريمة عموماً عن فئات ثلاث . الكافرين . المؤمنين . المنافقين . ولأن الآيات السابقة واللاحقة في السورة الكريمة تتحدث عن هؤلاء المنافقين .

وقد وقفنا ملياً عند جملة سول بمعنى زين والتي ذهب بعض العلماء بشأنها إلى أنها من السؤل بهمز الواو أساساً . ولكنهم استثقلوا ضغطة الهمزة فيه . فتكلموا على تخفيف الهمزة به . ويكون السول بمعنى ما سألته . وقد ذهب البعض الآخر من العلماء إلى أنها من السول بتشديد السين المفتوحة وفتح الواو بمعنى استرخاء ما تحت السرة من البطن . على أن المعنى الذي ذهب إليه جمهور العلماء من كون سول بمعنى زين يمكن أن يكون وليد ما تتمنى النفس ويهوى الشيطان الرجيم . ووليد ما دلاه الشيطان وأدناه مما تهوى النفس الأمارة بالسوء وتتمنى . وبما أن الإنسان يتمنى في العادة ما يراه في عينه حسناً وفي نفسه زيناً وإن كان في الحقيقة غير ذلك ، فلا مانع من ترجيح الرأي الذي يذهب إلى أن سول مأخوذة من السول الذي أصله الهمز من سأل بمعنى أراد وتمنى . وفيما يتصل بالخلاف بين العلماء بشأن العائد إليه قوله تعالى ﴿وأملى لهم﴾ أهو الذات العلية لأن الإملاء إنما هو بإرادته جل وعلا ، أم أن العائد عليه الكلام هو

المعطوف عليه الكلام في قوله جل وعلا : ﴿**الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾ وبذلك يكون الكلام عائداً على الشيطان الرجيم . فالذي يبدو ــ والله تعالى أعلم بالمراد ــ أن الكلام هنا عن الشيطان الرجيم الذي جاء ذكره صريحاً . فلا داعي في اعتقادنا لتحويل الحديث إلى مضمر ما دام الظاهر يصح أن يتوجه إليه الحديث . ومما لوحظ بشأن هذا القسم أننا في سبيل تبيين المراد بالذين كرهوا ما نزل الله حاولنا أن نعرف من السورة الكريمة أولئك الذين كرهوا ما نزل الله تعالى رغم أن هذه الصفة لاصقة أساساً بكل من المنافقين والكافرين واليهود . وقد كان الجواب في الآية التاسعة من السورة الكريمة ، تلك الآية التي نصت على أن كفّار مكة بصفة خاصة قد كرهوا ما أنزل الله قال تعالى : ﴿**والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾ وفي مقابل إقبال المنافقين بأوجههم على الباطل وإدبارهم عن الحق استحقوا أن يضربهم ملائكة العذاب ساعة الوفاة على الوجوه والأدبار . وفيما يتصل بفضح الله تعالى للمنافقين أشرنا إلى التدرج المنطقي العجيب الذي سار فيه عرض المعاني حيث قد ابتدأ بالإشارة إلى ظن المنافقين أن الله تعالى لن يخرج أضغانهم . ومعروف أن الخروج مجرداً لا يشترط معه إمكانية الرؤية كما لو خرج ضب ليلاً من جحره في مكان ليس فيه مخلوق . وما لبث أن تحول السياق إلى النص على قدرة الله تعالى لو شاء أن يري المصطفى ﷺ هؤلاء المنافقين بسيماهم . ومعروف أن الرؤية تتعلق بها ملابسات عدة إضافة إلى الخروج الذي اكتفى به السياق من ذي قبل . ومن هذه الملابسات كون هذا الشيء الذي يرى خاضعاً لقانون الإبصار الذي يشترط الضوء من ناحية والبصر القادر على تحويل الضوء إلى صورة من ناحية أخرى . وقد ارتبط بالرؤية المعرفة بالعلامات ومنها ما هو خفي على نحو امتقاع ألوان المنافقين حينما ذكر في السورة الكريمة القتال مجرداً فكأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وما لبث أن اتجه السياق إلى درجتين عاليتين هما القول والعمل قال

تعالى : ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾ .

وفيما يتصل بالقسم السابع الذي يتكوّن من أربع آيات هو يبدأ بالإشارة إلى أن رب العزة سيختبر المؤمنين وسيبتليهم وقد نصّت الآية الكريمة على أول أهداف ذلك الاختبار والابتلاء أن يعلم رب العزة علم ظهور المجاهدين والصابرين . وإن النص على كون الجهاد أول أهداف الابتلاء لا نملك إلاَّ أن نتمثل المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة ألا وهو الجهاد في سبيل الله . وكيف لا يكون هذا هو الهدف وإن من أسماء السورة الكريمة «سورة القتال» وهذا دليل آخر يضاف إلى الأدلة الكثيرة على قيمة الجهاد الغالية في الإسلام . وإن الإشارة إلى الصبر في الآية الكريمة دليل على قيمته وكونه شرطاً أساسياً لكل الأعمال الإيجابية النافعة وفي مقدمتها الجهاد في سبيل الله تعالى . والآية الكريمة التالية تضيف الجديد من المعلومات والصفات عن الكافرين ، فهم قد شاقوا الرسول ﷺ . بمعنى أنهم حاربوه وآذوه من بعد أن علموا أنه نبي مبعوث ورسول مرسل . وكأننا الآن بصدد الإشارة إلى مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع الكافرين مرحلة الحرب الفعلية . والآية الكريمة تجمع بوضوح غير مسبوق في آية واحدة بين قمة العمل السيء ضد الرسول الكريم وبين قمة الفشل الذريع للقوم الكافرين بإرادة مالك الملك ذي الجلال والإكرام . وقد أفهمت الآية الكريمة أن مشاقة الرسول الكريم إنما هي مشاقة لله تعالى ، وعلى عادة القرآن الكريم في الحديث عن الشيء وضده ، المعنى وخلافه يتحول الحديث عن المؤمنين ، وكان هذا

التحول بمثابة الإغراء لأولئك الأشقياء أن يتحولوا سريعاً مؤمنين لله رب العالمين . ولقد لفت انتباهنا عرض الآية الكريمة الرائع لمعانيها المتدرج نزولاً . إنها تبدأ من القمة التي وصلت إليها الآية السابقة في عرضها الرائع لمعانيها المتدرجة صعوداً . إن الآية السابقة تنتهي بالإشارة إلى خذلان الله تعالى للكافرين وإن هذه الآية التي تتحدث عن المؤمنين تأمرهم أن يطيعوا الله تعالى ورسوله . إن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول الكريم غاية ما يطلب من المؤمنين . وإن هذا المستوى الرفيع من الإيمان هو الذي يراد لكل الخلائق أن يصلوا إليه . وإن المطلوب من الكفّار هنا ضمناً أن يتحولوا إلى اعتناق الدين الذي رضي الله تعالى لعباده . أما إذا أصرّ الكافرون على كفرهم فإن الذي ينتظرهم هو الخزي في الدنيا وفي الآخرة بعد الموت . لذا نجد الآية الكريمة التالية تتحدث عن هؤلاء الكافرين من زاوية جديدة هي كونهم قد ماتوا وهم كفار وأن مصيرهم معروف على غرار مصير المنافقين من ذي قبل في قوله تعالى : **﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾** ولقد لفت انتباهنا استعمال ثم في الآية الكريمة **﴿ثم ماتوا وهم كفّار﴾** بينما استعملت الواو من ذي قبل في قوله تعالى : **﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول﴾** وفي ذلك دليل على أنه كان لدى هؤلاء الكافرين فسحة من الوقت كافية لأن يقلبوا الأمور على وجوهها المختلفة ويختاروا أحسنها . وبموت الكفّار ينتهي الحديث عنهم فيما يتصل بحياتهم الدنيا كي يتحوّل إلى المؤمنين وعن ثمرة منهج التربية القرآنية من زاوية الجهاد في سبيل الله تعالى محور السورة الكريمة . قال تعالى : **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم﴾** .

وفيما يتصل بالقسم الثامن والأخير من السورة الكريمة والذي يتكوّن من أربع آيات فإن الآية الكريمة الأولى تنهي المؤمنين المتقين المجاهدين في سبيل الله تعالى أن يضعفوا ويهنوا ويدعوا أعداء الله تعالى إلى السلم لأنهم هم الأعلون «عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً وعلماً وعملاً»[1] . لأن الله تعالى معهم . ثم إنه جل وعلا لن ينقصهم ثواب أعمالهم . والآية الكريمة التالية تزهد في متع الحياة الدنيا وتبيّن أن الإيمان والتقوى هما ملاك الأمر . وقد لاحظنا تكون الآية الكريمة من ثلاث جزئيات . كل جزئية تشتمل على معنيين أو فكرتين . فالحياة الدنيا في حقيقتها لعب بشأن جد الأمور التي لا يراد بها وجه الله تعالى ولهو بشأن الأمور التي تأخذ بسبب من العبث . والمطلوب من المسلمين لله رب العالمين الإيمان والتقوى وإذا كان اللهو أشد من اللعب فإن التقوى أعلى درجات الإيمان . وفيما يتصل بإيتاء الله تعالى اجور العباد ارتبط بذلك جزاء الحسنة بعشر أمثالها . أما فيما يتصل بالأخذ فقد اكتفى الحديث بنفي سؤال الأموال مجرداً . إن الإيتاء اقترن به العمل الإيجابي ، وإن الأخذ ارتبط به القول المنفي . ما أرأفه جل وعلا بعباده وأرحمه . وإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية تبيّنا أنها تتعلق بسؤال الله تعالى المؤمنين المتقين هذه الأموال ولكن طريقة السؤال هنا تضيف جديداً وهو الإلحاف في المسألة والإلحاح . وقد نجم عن ذلك رد فعل جديد وهو خروج الأضغان مقابل الإلحاح الجديد ، بينما خرج البخل مقابل السؤال . وهكذا يلاحظ التدرج المنطقي العجيب في عرض المعاني . كما أن الآية الكريمة تنقسم قسمين عادلين أحدهما يتعلّق بالسؤال وثانيهما يتعلق برد الفعل . والآية الكريمة الأخيرة في السورة تخاطب المسلمين المؤمنين المتقين بأنهم يدعون لينفقوا في سبيل الله تعالى شيئاً من أموالهم . ومن هؤلاء من تسخو نفسه وتجود ومنهم من تبخل نفسه وتشح . وبما أن الجزاء من جنس العمل

---

(١) فقه السنة ـ السيد سابق ٣ ـ ٥٤.

فالآية الكريمة تبين بصريح العبارة أن من يبخل عن الإنفاق فإنما يبخل في حقيقة الأمر عن نفسه لا عن الآخرين لأنه بخل عن نفسه بالأجر الجزيل من الله تعالى . وتختم السورة الكريمة بتهديد المؤمنين بأنهم إن لم يقوموا بما يجب عليهم وهم الذين حملوا أمانة الإسلام فإن الله تعالى سيستبدل بهم قوماً آخرين مؤمنين متقين مجاهدين في سبيل الله تعالى لا يخافون لومة لائم . قال تعالى : **﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** .

(صدق الله العظيم)

وصلى الله على رسوله وحبيبه محمد النبي الأمي الكريم . وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً . والحمد لله رب العالمين .

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
سورة محمد عليه الصّلاة والسلام	٩
فكرة	١٣
توطئة	١٥
القسم الأول: الّذين كفروا أضلّ أعمالهم والّذين آمنوا أصلح بالهم	٣١
القسم الثاني: معاملة الأسرى في الإسلام	٥٧
القسم الثالث: الله مولى الّذين آمنوا، والّذين كفروا لا مولى لهم	١٠٣
القسم الرابع: المنافقون طبع الله على قلوبهم والّذين اهتدوا زادهم هدى	١٥٧
القسم الخامس: المؤمنون شجعان والمنافقون جبناء وحثّ على تدبّر القرآن	١٨٧
القسم السادس: المنافقون يطيعون الكفّار ويعرفون بلحن القول	٢٢١
القسم السابع: ثواب المؤمنين الطّائعين وعقاب الكافرين العاصين	٢٥٥
القسم الثامن: حثّ على الجهاد وإنذار المتثاقلين بالاستبدال بهم غيرهم	٢٧١
الخاتمة	٢٩٩
فهرست الموضوعات	
فهرست المصادر والمراجع	

فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم. الكامل في التاريخ. بيروت ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م.

ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيق د. صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٦ - ١٣٩٦ م.

الرسالة التدمرية. القاهرة ١٣٨٧ هـ نشرها قصي محب الدين الخطيب.

ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل. شرح ألفية ابن مالك. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. الطبعة التاسعة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م.

ابن القيم: محمد بن أبي بكر. زاد المعاد. مصطفى البابي الحلبي مصر ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

طريق الهجرتين وباب السعادتين، بيروت، بدون تاريخ.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل. تفسير ابن كثير بيروت، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت - ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.

ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي الطبعة الثانية ١٣٧٥ - ١٩٥٥ م حلبي القاهرة.

أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، البحر المحيط، بيروت، أوفست.

أبو الفرج: الأغاني، دار الكتب.

البخاري: الصحيح. كتاب الشعب. ١٣٧٨ هـ.

البنا، حسن: الله في العقيدة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٧ م.

الجهاد في سبيل الله، دار الجهاد ودار الاعتصام ١٩٧٧ م.

حسان: الديوان، تحقيق د. سيد حنفي حسنين القاهرة ١٩٧٤ م.

دراز: محمد عبد الله. دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية. الكويت. الطبعة الثانية ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤ م.

الزرقاني: محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن عيسى البابي الحلبي. وشركاه ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م.

سابق: السيد. فقه السنة. الطبعة الأولى. بيروت ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ م.

السقا: مصطفى. مختار الشعر الجاهلي. الطبعة الثانية ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٨ م.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م. تفسير الجلالين، جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطي. لباب النقول في أسباب النزول الطبعة الأولى ١٩٧٨ م ـ بيروت.

الشوكاني: محمد بن علي بن محمد. فتح القدير. تصوير بيروت، مصطفى البابي الحلبي.

طبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن الطبعة الأولى. بولاق ١٣٢٩ هـ.

عبده:) الشيخ محمد. رسالة التوحيد. الطبعة السابعة عشرة ـ ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م.

العربي: المجلة.

العقاد: عباس محمود. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م القاهرة.

فك: يوهان. العربية ترجمة د. عبد الحليم النجار. القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م.

الفيروزابادي: مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط.

الفيصل: المجلة.

القرضاوي: د. يوسف. الحلال والحرام. الطبعة السابعة. بيروت ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن كتاب الشعب بمصر.

قطب: سيد. في ظلال القرآن. الطبعة المشروعة الثانية ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ م دار الشروق. معالم في الطريق.

قطب: محمد. شبهات حول الإسلام. الطبعة الحادية عشرة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م. دار الشروق.

كامل: د. عبد العزيز. خطوات نحو القدس. اقرأ ٣٩٤ ـ دار المعارف بمصر.

المتنبي: الديوان بشرح العكبري. الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م.

المجذوب: محمد. مشكلات الجيل في ضوء الإسلام. الطبعة الثانية دار الاعتصام ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

الندوى: أبو الحسن علي الحسني الندوي، السيرة النبوية الطبعة الأولى دار الشروق، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م. الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية. الطبعة الثالثة دار الأنصار. القاهرة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ م.

النووي: يحيى بن شرف ـ رياض الصالحين. تصوير بيروت.

النيسابوري: نظام الدين، الحسن بن محمد بن حسين، غرائب القرآن ورغائب الفرقان. مطبوع بهامش تفسير الطبري بولاق ١٣٢٩ هـ.

ياقوت: معجم البلدان ـ بيروت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م.

الطّبعة الأولى : ١٩٨٠م
الطّبعة الثّانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م

مطابع مؤسسة مكة للطباعة والإعلام
مكة المكرمة . ت: ٥٢٠٣٠٥٤